سُنّة التدرّج
في التشريع القرآني

تأليف
فضيلة الشيخ : حذيفة بن حسين القحطاني
غفر الله لهُ ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله الذي أنزل الكتاب تبيانًا لكل شيء، وجعله هدىً ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ، الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فإن التشريع الإسلامي، بمصدريه الأساسيين: القرآن الكريم والسنة النبوية، يمتاز بسمة أساسية جعلته صالحاً لكل زمان ومكان، قادرًا على مخاطبة الإنسان أينما كان وحيثما كان، هذه السمة هي سنة التدرج؛ تلك الحكمة البالغة التي تجلت في إنزال الأحكام شيئًا فشيئًا، وبنائها على مراحل، تتناسب مع طبيعة النفس البشرية وتركيبتها، وقابليتها للتغير والتحول.

لقد جاء القرآن الكريم ليغير واقعًا مليئًا بالعادات الجاهلية، والتصورات المنحرفة، والنظم الاجتماعية الفاسدة. ولم يكن هذا التغيير ليتم بين عشية وضحاها، بل كان تغييرًا تدريجيًا حكيمًا، يراعي أحوال الناس، ويؤهل النفوس لتقبل النور والهداية، ويبني الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم بناءً متينًا.

ومن هنا، تأتي أهمية هذا الكتاب "سُنّة التدرّج في التشريع القرآني: دراسة تأصيلية تحليلية في ضوء مقاصد الشريعة"، الذي يتناول واحدة من أهم خصائص المنهج القرآني في التشريع والتكوين. فهو محاولة لفهم الحكمة من وراء هذا الأسلوب الرباني، واستنباط الدروس والعبر التي يمكن أن تستفيد منها حركة الإصلاح والتجديد في عصرنا.

يسعى هذا الكتاب إلى تحقيق جملة من الأهداف، من أبرزها:

١. التأصيل لسنة التدرج مفهومًا وأدلةً، وبيان مكانتها في منهج التشريع الإسلامي.

٢. التحليل العملي لمظاهر هذه السنة في تشريع الأحكام العملية (العبادات، المعاملات، الأحوال الشخصية) وفي التربية على القيم والأخلاق.

٣. ربط التدرج بمقاصد الشريعة، لإيضاح كيف كان هذا المنهج أداة فاعلة لتحقيق المصالح ودرء المفاسد، وكيف خدم المقاصد الكبرى للشريعة: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

٤. استنباط الدلالات التربوية والمنهجية المعاصرة من سنة التدرج، لتكون نبراسًا للدعاة والمربين والمصلحين في خططهم وبرامجهم.

وقسمت الدراسة إلى فصول، يتناول الأول: الإطار المفاهيمي والمقاصدي للتدرج. ويبحث الثاني: التدرج في تشريع العبادات. ويختص الثالث: بالتدرج في تشريع المعاملات والأحوال الشخصية. بينما يناقش الرابع: التدرج في التربية على القيم والأخلاق. ويختم الخامس: باستعراض أهم الثمرات والتطبيقات المعاصرة لهذه السنة.

وهي في جملتها محاولة متواضعة لتسليط الضوء على جانب من حكمة التشريع الإلهي وروعته، الذي لم يغفل عن صغير ولا كبير من شؤون الحياة إلا ونظمها، ولم يهمل نفسًا بشرية إلا وأخذ بيدها برفق وحكمة إلى بر الأمان والكمال.

سائلين المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، ونافعًا لعباده، ولَبِنَةً في إعادة بناء الوعي بمنهجية الإسلام في التغيير والإصلاح. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أهمية دراسة التدرّج في التشريع لفهم الحكمة من ترتيب الأحكام

بلا شك، فإن دراسة سنة التدرج في التشريع تمثل مفتاحًا أساسيًا لفهم الحكمة الإلهية البالغة من وراء ترتيب الأحكام وتنزلها. ولا يمكن لفهم التشريع الإسلامي فهمًا مقاصديًا عميقًا دون إدراك هذه السنة. ويمكن إبراز أهميتها في النقاط التالية:

١. الكشف عن حكمة الله ورحته بعباده

- يزيل دراسة التدرج أي لبس حول "التعارض" بين بعض الآيات أو "نسخ" الأحكام، مُظهرًا إياها كخطوات متكاملة في مسار واحد.

- يبرز الرعاية الربانية للناس، حيث لم يكلفهم الله بما لا يطيقون دفعة واحدة، بل أخذ بأيديهم خطوة بخطوة. قال تعالى: "وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا" (الإسراء: ١٠٦).

٢. فهم المنطق الداخلي للتشريع وسياقه التاريخي

- يجعلنا نفهم لماذا نزل هذا الحكم في هذه المرحلة دون غيرها؟ فتحريم الخمر مثلًا لم يكن أمرًا مفاجئًا، بل مر بمراحل (البيان ثم التفريق بينها وبين الميسر ثم التحريم القاطع)، مما يعطينا سياقًا لفهم العلل والمقاصد.

- يربط بين الأحكام والواقع الاجتماعي الذي نزلت فيه، مما يجعل دراسة السيرة النبوية وسياق النزول جزءًا لا يتجزأ من فهم التشريع نفسه.

٣. استنباط منهجية للتغيير الاجتماعي والإصلاح

- تقدم سنة التدرج نموذجًا عمليًا للإصلاح لكل داعية ومربٍ ومصلح. فهي تعلمنا:

- الواقعية: البدء من حيث الناس، وليس من حيث نريدهم أن يكونوا.
- الترتيب: تقديم الأولويات على غيرها (كبدء الدعوة بالتوحيد قبل التفاصيل).
- المرحلية: تقسيم الأهداف الكبرى إلى خطوات صغيرة قابلة للتحقيق.

☐ تمنحنا فهمًا أعمق لكيفية إدارة عملية الانتقال من المجتمعات الجاهلية إلى المجتمع الإسلامي، وهو دروس بالغ الأهمية في عصرنا.

٤. تحقيق المقاصد الشرعية وضمان الاستقرار

☐ يضمن التدرج تحقيق المقاصد دون إثارة مفاسد أكبر. فمثلًا، لو حرمت الرق منذ البداية لثارت حروب طاحنة وانهار النظام الاقتصادي القائم. جاء التدرج في تقييده ثم الحث على العتق ليحقق الحرية بشكل تدريجي ومستقر.

☐ يحقق الاستقرار النفسي والاجتماعي، فالتغيير المفاجئ للعادات الراسخة يسبب صدمة ورفضًا، بينما التغيير التدريجي يهيئ النفوس ويجعل القبول أعمق وأدوم.

٥. الرد على الشبهات حول تطور الأحكام الإسلامية

☐ يقدم التدرج إجابة قوية لمن يشكك في التشريع الإسلامي بسبب "تطور" أحكامه، مُظهرًا أن هذا التطور ليس عشوائيًا، بل هو تدرج حكيم مقصود، يدل على ربانية هذا الدين ومرونته وملاءمته للفطرة الإنسانية في كل حالاتها.

٦. فهم فلسفة التكليف ومراعاة حال المكلف

☐ يؤكد أن التكليف في الإسلام مبني على اليسر لا العسر، ورفع الحرج.

- يربط بين مراحل التشريع ومراحل تربية الأمة، من الطفولة إلى النضج، مما يجعله نموذجًا تربويًا فريدًا.

دراسة سنة التدرج ليست مجرد دراسة تاريخية لمراحل تشريع الأحكام، بل هي غوص في أعماق الحكمة الإلهية، واستمداد للمنهجية الربانية في إصلاح البشر، وهي ضرورة لفقهاء المجددين والمصلحين الذين يسعون لتطبيق الشريعة في واقع معاصر متغير، حتى يسيروا على النهج نفسه: نهج الحكمة، والرفق، والمرحلية، والواقعية، تحقيقًا لمقاصد الشريعة ووصولًا إلى الغاية منها: تحقيق العبودية لله وبناء حضارة الإنسان.

ارتباط التدرّج بمقاصد الشريعة في الرفق والتيسير وتحقيق المصلحة.

يُمثِّل ارتباط سنة التدرج بمقاصد الشريعة في الرفق والتيسير وتحقيق المصلحة، جوهرَ الحكمة من هذا المنهج التشريعي العظيم. فالتدرج ليس مجرد أسلوب عرض تاريخي، بل هو تجسيد عملي للمقاصد الكبرى التي جاءت الشريعة لتحقيقها.

لننظر إلى هذا الارتباط العضوي من خلال الزوايا التالية:

١. التدرج وتحقيق مقصد اليسر ورفع الحرج:

قال تعالى: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" (الحج: ٧٨). ويقول: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" (البقرة: ١٨٥).

- التكليف بما يُطاق: فرضت الصلاة أولاً ركعتين، ثم أتمت في الحضر، تكييفًا مع واقع المسلمين الجديد.
- التخفيف التدريجي: كما في تشريع الصيام، حيث كان الخيار بين الصوم والإطعام في البداية، ثم أصبح الصوم فرضًا مع وجود رخص للمريض والمسافر.
- البناء على القريب لا البعيد: لم يُحرّم الإسلام الخمر دفعة واحدة، بل بدأ ببيان ضررها الأدبي (إثمها أكبر من نفعها)، ثم نهى عن الصلاة أثناء السكر، ثم حرمها تحريمًا قاطعًا. هذا تدرج يراعي العادة الراسخة ويُهيء النفوس للتخلي الطوعي.

٢. التدرج وتحقيق مقصد جلب المصلحة ودرء المفسدة:

التدرج هو أداة حكيمة لتحقيق "جلب أعلى المصلحتين بترك أدناهما، ودفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما".

- في تحريم الخمر: المصلحة هي حفظ العقول والأموال والأخلاق. والمفسدة هي الصدمة الاجتماعية والاقتصادية. كان التدرج هو الآلية لتحقيق المصلحة الكبرى (مجتمع سليم) مع دفع المفسدة الكبرى (الرفض والتمرد).

- في تحريم الربا: التعامل بالربا كان عماد الاقتصاد الجاهلي. جاء التدرج بذمّه أولاً "وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ" (البقرة: ٢٧٩)، ثم التحريم القاطع. هذا حَفِظَ المال (مقصد شرعي) دون إحداث انهيار اقتصادي مفاجئ (مفسدة).

٣. التدرج وتحقيق مقصد العدل والرحمة:

- في التعامل مع الرق: كان نظام الرق واقعًا عالميًا. جاء الإسلام بمنهج تدريجي للقضاء عليه من جذوره دون ظلم للأرقاء أو الأسياد.

- المرحلة الأولى: تشجيع العتق وجعلها من أعظم القربات.
- المرحلة الثانية: فتح باب التحرير على مصراعيه من خلال الكفارات.
- المرحلة الثالثة: تحديد مصادر الرق المشروعة بشدة، مما أغلق تدريجيًا باب الاسترقاق.

هذا التدرج حقق العدالة والرحمة للجميع، ولم يظلم فئة لصالح أخرى.

٤. التدرج وتحقيق مقصد العمران والاستقرار:

يبني التدرج المجتمعات بناءً متينًا، لأنه:

- يؤسس على القناعة: عندما تتغير المفاهيم والقيم أولاً، يصبح الالتزام بالأحمال التشريعية نابعًا من قناعة داخلية، مما يضمن استمراريتها واستقرارها.

- يحمي النسيج الاجتماعي: التغيير الجذري المفاجئ يسبب شقاقًا وتمزقًا اجتماعيًا. بينما التدرج يسمح بامتصاص الصدمة والتكيف مع الوضع الجديد، مما يحفظ تماسك المجتمع.

٥. التدرج وتحقيق مقصد العبودية الكاملة لله:

الهدف النهائي هو إخلاص العبودية لله في كل شيء. والتدرج هو الطريق العملي لتحقيق هذه العبودية بشكل طوعي واعي، وليس كارهًا مُجبرًا. فالنفس تتعلم حكمة التشريع وتذوق حلاوة الإيمان عبر هذه المراحل، فتصبح العبادة نابعة من المحبة لا من الخوف فقط.

ويمكن القول إن سنة التدرج هي الجسر العملي الذي يربط النصوص الشرعية بمقاصدها الكلية. فهي الآلية التي جعلت الرفق والتيسير وتحقيق المصلحة صفات ملازمة للتشريع الإسلامي، وليست مجرد شعارات. لذلك، فإن فهم هذه السنة وتطبيق منهجيتها هو مطلب أساسي لكل من يتعامل مع الشريعة: فقيهًا ومفسرًا، داعية ومصلحًا، حاكمًا ومحكومًا، لضمان تحقيق مقاصد الشريعة في واقع الناس بأيسر الطرق وأكثرها حكمةً وثباتًا.

أثر إغفال هذه السنة في سوء فهم النصوص أو تنزيلها.

بلا شك، فإن إغفال سنة التدرج أو تجاهلها عند تفسير النصوص الشرعية أو تطبيقها يؤدي إلى جملة من الآثار السلبية الخطيرة، يمكن إجمالها في ما يلي:

١. سوء الفهم النصي والتناقض الظاهري

- الوقوع في إشكالات "الناسخ والمنسوخ" دون حلها: من يغفل التدرج قد يرى تعارضًا بين آيات العفو والصبر وآيات الجهاد مثلًا، ولا يدرك أنها مراحل في بناء الأمة.

- اتهام النص بالاضطراب: قد يُفسر تطور الأحكام (كمراحل تحريم الخمر) على أنه تغيير وعدم ثبات، بينما هو تدرج حكيم مقصود.

- الفهم المجتزأ للنص: أخذ النص النهائي (كتحريم الخمر) وفصله عن سياقه التدرجي يفقدنا فهم العلل والحكم الكامنة وراء التحريم، فيُختزل الحكم في ألفاظه دون روحه ومقاصده.

٢. التطبيق الحرفي المتشدد

- القفز على مراحل التربية: محاولة تطبيق الأحكام النهائية (التي نزلت في مرحلة قوة الدولة) على مجتمع لم يمر بمراحل التأسيس الإيماني والتربوي، مما يؤدي إلى:

- الصدمة والرفض: كمن يريد تطبيق حد السرقة في مجتمع يعاني من الفقر المدقع دون معالجة الأسباب أولاً.

- التنفير من الدين: حيث يظهر الإسلام بصورة قاسية غير مألوفة، تتناسب مع مجتمع ناضج مؤمن، ولكنها لا تتناسب مع مجتمع في بداية عودته إلى الدين.

- إهدار مقاصد الشريعة: التطبيق الحرفي الذي يتجاهل التدرج قد يحقق "النص" لكنه يهدر "المقصد". فتشديد النقاب على النساء في مجتمع لم يُربَّ على عقيدة سليمة أولاً، قد ينتج عنه نفور أو تشويه لصورة الدين.

٣. الفهم التاريخي المنفصل عن الدلالة

- تجميد النص في سياقه التاريخي فقط: حيث يُقال إن أحكامًا

- فصل التشريع عن سياقه الحضاري: عدم فهم أن التدرج كان منهجًا لبناء حضارة، وليس مجرد استجابة ظرفية، مما يفقدنا القدرة على استنباط المنهجية للتطبيق المعاصر.

٤. الإصلاح العشوائي والتفكيك المجتمعي

- غياب الأولويات في العمل الإصلاحي: الداعية أو المصلح الذي يغفل التدرج قد يبدأ بالجزئيات قبل الكليات، وبالهيئات قبل الجوهر، فيُهدر الوقت والجهد دون بناء حقيقي.

- مثال: التركيز على إلحادية زي المرأة في مجتمع يعاني من أزمة في العقيدة والأخلاق الأساسية.

- الهدم دون بناء: النقد اللاذع للممارسات الخاطئة دون تقديم بديل تدريجي مقبول، مما يؤدي إلى تفكيك القيم الاجتماعية دون إعادة بنائها على أسس سليمة.

٥. تقديم صورة مشوهة عن الإسلام

- بروز صورة "الإسلام العقابي": عندما تُقدم الأحكام النهائية (كحدود) دون سياقها التربوي والتدرجي، يظهر الإسلام للعالم وكأنه دين قائم على العقاب والقسوة، مع أنه في حقيقته دين التدرج والرحمة.

- تغذية خطاب الإسلام وفوبيا: يجد المنتقدون مادة دسمة عندما يرون تطبيقات متشددة تنزع النصوص من سياقها التدرجي، فتُقدم على أنها جوهر الإسلام الثابت.

٦. اليأس والإحباط في التطبيق الفردي والجماعي

- الفرد: عندما يقرأ المسلم النهي النهائي عن المنكرات (كالغناء أو الربا) وهو غارق فيها، قد يشق عليه التخلي فجأة، فييأس أو يتهاون. أما إذا فهم التدرج، لَعَلِمَ أن عليه بداية بالنية والمجاهدة التدريجية.

- المجتمع: قد تيأس الجماعات الإسلامية من إصلاح مجتمعها إذا قاست واقعها المتخلف مباشرة بالنموذج النبوي المتكامل في المدينة، متناسية المراحل الطويلة والشاقة التي مر بها البناء النبوي.

إغفال سنة التدرج يحوِّل الشريعة من نظام حكيم متكامل لبناء الإنسان والمجتمع، إلى مجرد نصوص مجتزأة قد تُفهم بشكل متحجر أو تُطبق بشكل منفّر.

لـذلك، فـإن استحضـار هـذه السـنة في الفهـم والتنزيـل هـو ضـمانة منهجيـة لفهـم روح الشـريعة ومقاصـدها، وتطبيقهـا بشـكل يـوازن بـين الثبـات علـى المبـادئ والمرونـة في الأسـلوب والمسـار، ممـا يجعـل الإسـلام صـالحاً للتطبيـق في كـل زمـان ومكـان، كمـا أراد له الله تعالى.

أهمية التدرّج في الواقع المعاصر (الإصلاح، الدعوة، الفتوى، التربية).

تمتـد أهميـة سـنة التـدرج مـن الماضـي التشـريعي إلى حاضـرنا المعاصـر بكـل تفاصـيله، لتشـكل منهجًـا عمليًـا حكيمًـا في مجـالات حيويـة عـدة. إنهـا ليسـت مجـرد "نظريـة تاريخية" بل هي "استراتيجية عملية" للإصلاح والبناء.

دعنا نرى تجليات هذه الأهمية في المجالات المعاصرة:

١. في مجال الإصلاح الاجتماعي والسياسي:

- العـلاج الجـذري لا السـطحي: بـدلاً مـن الصـدمات الاجتماعيـة بفـرض تغييرات جذرية مفاجئة (قد تؤدي إلى انهيارات)، يتبنى الإصلاح بالتدرج:

- معالجـة الفسـاد: البـدء بتقويـة مؤسسـات الرقابـة والمحاسـبة قبـل شـن حمـلات اعتقال كبرى، لضمان عدم انهيار النظام.
- الإصـلاح الاقتصـادي: الإعـلان تـدريجيًا عـن إصـلاحات الـدعم مثلًـا، مـع إطـلاق بـدائل وبـرامج حمايـة اجتماعيـة أولاً، لتقبـل الصـدمة وضـمان اسـتقرار الأسر محدودة الدخل.

- بناء الدولة: تطبيق الشريعة في المجتمعات المعاصرة يحتاج إلى خطة مرحلية تبدأ بترسيخ مقاصد الشريعة (العدل، التعليم، الصحة، كرامة الإنسان) قبل التركيز حصريًا على الجوانب الجزائية.

٢. في مجال الدعوة إلى الله:

- الدعوة بالحكمة: تطبيق منهج "ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة".
- مراعاة حال المدعو: الداعية إلى شاب بعيد عن الدين يبدأ بغرس محبة الله والرسول ﷺ وبيان جمال الإسلام الأخلاقي، قبل أن ينتقل إلى تفاصيل العبادات والأحكام.
- البدء بالكليات قبل الجزئيات: التركيز على التوحيد والإيمان والعبودية لله قبل الخوض في الخلافات الفقهية والجزئيات.

- تقديم صورة جذابة عن الإسلام: التدرج يمنع "صدمة" المدعو بأحكام قد يصعب تقبلها في البداية، فينفر من الدين كله. البدء بالقيم المشتركة (الصدق، الأمانة، الرحمة) يمهد لقبول الأحكام لاحقًا.

٣. في مجال الفتوى والنوازل:

- مراعاة تغير الأحوال والضرورات: الفقيه المعاصر الذي يستحضر التدرج لا ينظر إلى النص بمعزل عن واقع الناس.

- الفتوى المرحلية: قد تختلف الفتوى في حالة الضرورة أو الحاجة العامة عما هي في حالة الاختيار. فتوى جواز التعامل مع البنوك ربوية في مجتمع لا

قِبل له بالنظام المالي الإسلامي الكامل هي فتوى تدرجية تحقق أهون المفسدتين.

- موازنة المصالح والمفاسد: إصدار فتوى تمنع شيئًا فيه مفسدة صغيرة قد تؤدي إلى مفسدة أكبر، يخالف منهج التدرج. (مثل منع الاختلاط في العمل بشكل قاطع قد يمنع كثيرًا من النساء من الكسب الحلال والتعلم).

- تغيير الفتوى بتغير الزمان: الفتوى التي كانت مناسبة لعصر قد لا تكون مناسبة لآخر، والتدرج يساعد الفقيه على فهم "سنة التغير" في الأحكام تبعًا لتغير الظروف.

٤. في مجال التربية والأسرة:

- تربية الأبناء: التدرج هو أساس التربية الناجحة.

- مراحل الطفولة: التركيز على غرس المحبة والانتماء للدين قبل سن التكليف.
- تعليم الصلاة: بالأمر اللطيف عند سن السابعة، وليس بالعقاب الشديد.
- التدريب على العبادات: بتشجيع الصيام ساعات قليلة أولاً، وليس يومًا كاملًا فجأة.

- التربية الذاتية: المسلم الذي يريد العودة إلى دينه لا يثقل على نفسه فجأة بكثرة النوافل والقيام، بل يبدأ بالفرائض ويبني عليها تدريجيًا، حتى لا يمل ويرتد إلى حال أسوأ.

- بناء الشخصية المتزنة: التدرج في تحمل المسؤوليات ينشيء شخصية واثقة قادرة على المواجهة، بعكس التغيير المفاجئ الذي يخلق شخصية مهتزة.

٥. في مجال التعامل مع القضايا الفكرية والمعاصرة:

- قضايا المرأة: الإصلاح الاجتماعي المتعلق بمكانة المرأة يحتاج إلى تدرج في تغيير الثقافة السائدة أولاً، ثم الممارسات، وليس بفرض قوانين قد ترفضها الثقافة السائدة فتفشل.

- قضايا الاجتهاد: تجديد الخطاب الديني يحتاج إلى تدرج في تقديم الأفكار المجددة، وطرحها للنقاش والتهيئة لها، وليس بطريقة صادمة تسبب ردة فعل عكسية.

في عصر السرعة والضغوط والتحولات الاجتماعية العنيفة، تظهر سنة التدرج كمنقذ من فخين خطيرين:

- الجمود على النصوص دون مراعاة الواقع.

- العنف في التغيير الذي يهدم ولا يبني.

لذا، فإن اعتماد منهج التدرج في واقعنا المعاصر هو علامة على النضج الفكري والمنهجي، وهو السبيل العملي لتحقيق المقاصد الحقيقية للشريعة: اليسر، والرحمة، وبناء الإنسان، وإصلاح الأرض. إنه يجعل الإسلام قادرًا على قيادة دفة التغيير في العالم بلطف وحكمة، لا بصدمة وعنف.

الفصل الأول: مفهوم التدرّج

المبحث الأول: التعريف اللغوي والاصطلاحي للتدرّج

أولاً: التعريف اللغوي:

- التدرّج في اللغة مصدر الفعل "تَدَرَّجَ"، وهو يدل على الانتقال بالتدريج من حال إلى حال، أو من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها، بشكل متتابع ومنظم.

- الدَّرَج يعني: المرقاة أو السلم. ويقال: "دَرَجَ الصبي" إذا مشى خطوة فخطوة.

- والمعنى الجامع: التدرج هو التتابع والترقي في مراحل متسلسلة، كالصعود درجة درجة.

المصدر اللغوي:

- لسان العرب لابن منظور: "الدَّرَج: المرقاة... وتدرج في الأمر: ترقى فيه بالتدريج".

- مقاييس اللغة لابن فارس: "الدال والراء والجيم أصل واحد، وهو تتابع الشيء".

ثانياً: التعريف الاصطلاحي:

عرف العلماء التدرج في التشريع بعدة تعاريف متقاربة، تجمع في جوهرها على أنه:

"منهج رباني في تنزيل الأحكام الشرعية، يقوم على بيانها وتطبيقها بشكل تدريجي متسلسل، عبر مراحل زمنية متتالية، بما يتناسب مع استعداد الناس وقدرتهم على التلقي والتطبيق، تحقيقاً لمقاصد الشريعة في التيسير ورفع الحرج."

وهو يشمل أيضاً: "الأسلوب الحكيم في نقل الناس من عادات الجاهلية وأوضاعها المنحرفة، إلى أحكام الإسلام وقيمه السامية، عبر مراحل متعددة، تبدأ بالأهم فالمهم، وبالأصول قبل الفروع، وباليسر قبل العسر."

أركان التدرج في الاصطلاح الشرعي:

١. التتابع الزمني: وجود فترات زمنية بين تشريع الأحكام.

٢. الترتيب المنطقي: تقديم ما هو أساسي ومهم على ما هو فرعي وأقل أهمية.

٣. مراعاة حال المكلف: مراعاة القدرة والاستعداد النفسي والاجتماعي للناس.

٤. تحقيق المصلحة: يكون التدرج وسيلة لتحقيق المصالح ودرء المفاسد.

المصدر الاصطلاحي:

- موقف الإسلام من التدرج في تطبيق الأحكام للدكتور عبدالله الركبان: "التدرج هو الأسلوب الذي اتبعه المشرع في إيصال المكلف إلى درجة الكمال من خلال خطوات متعاقبة".

- سنة التدرج في التشريع الإسلامي للدكتور محمد رأفت عثمان: "إبلاغ الأحكام الإسلامية وتنفيذها على مراحل وفق حكمة بالغة تقتضي التأني في الانتقال بالبشر من حياة الجاهلية إلى حياة الإسلام".

الخلاصة:

يجمع التعريفان اللغوي والاصطلاحي على أن التدرج هو:

مسيرة متصلة، وبناء متسلسل، ينتقل فيه الإنسان أو المجتمع من مستوى إلى مستوى أعلى، بشكل حكيم وواقعي، يحقق التمكين والاستقرار.

وهذا المفهوم هو الأساس الذي ستبنى عليه باقي مباحث هذا الفصل، التي تتناول الأدلة والأمثلة والمقاصد.

المبحث الثاني: التأصيل القرآني والنبوي لسُنّة التدرّج

أولاً: دلائل التدرّج في القرآن الكريم

يقدم القرآن الكريم أدلة واضحة وجلية على سنة التدرج، يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

١. الدلائل التطبيقية (من خلال قصص التشريع):

أ- تدرج تحريم الخمر:

- المرحلة الأولى (بيان ضررها الأدبي والأخلاقي):

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) [النحل: ٦٧].

إشارة إلى أن السكر ليس من الرزق الحسن.

- المرحلة الثانية (بيان ضررها العبادي والاجتماعي):

(يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا لَـا تَقْرَبُـوا الصَّـلَاةَ وَأَنْـتُمْ سُـكَارَى حَتَّـى تَعْلَمُـوا مَـا تَقُولُـونَ) [النساء: ٤٣].

تهيئة للنفوس بمنعها في أوقات العبادة.

- المرحلة الثالثة (التحريم القاطع والنهي الصريح):

(يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا إِنَّمَـا الْخَمْـرُ وَالْمَيْسِـرُ وَالْأَنْصَـابُ وَالْأَزْلَـامُ رِجْـسٌ مِـنْ عَمَـلِ الشَّـيْطَانِ فَـاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُـونَ * إِنَّمَـا يُرِيـدُ الشَّـيْطَانُ أَنْ يُوقِـعَ بَيْـنَكُمُ الْعَـدَاوَةَ وَالْبَغْضَـاءَ فِـي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِـرِ وَيَصُـدَّكُمْ عَـنْ ذِكْـرِ اللَّـهِ وَعَـنِ الصَّـلَاةِ فَهَـلْ أَنْـتُمْ مُنْتَهُـونَ) [المائـدة: ٩٠-٩١].

ب- تدرج تحريم الربا:

- المرحلة الأولى (الذم الأدبي والوعيد في الآخرة):

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ) [الروم: ٣٩].

- المرحلة الثانية (التحريم القاطع مع بيان علة التحريم):

(الَّـذِينَ يَـأْكُلُونَ الرِّبَـا لَـا يَقُومُـونَ إِلَّـا كَمَـا يَقُـومُ الَّـذِي يَتَخَبَّطُـهُ الشَّـيْطَانُ مِـنَ الْمَـسِّ) [البقرة: ٢٧٥].

- المرحلة الثالثة (الأمر بالتخلي عن أصل المال والتوبة):

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) [البقرة: ٢٧٩].

ج- تدرج تشريع الصيام:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) [البقرة: ١٨٣-١٨٤].

حيث بدأ الصيام بتخيير بين الصوم والإطعام، ثم أصبح الصوم فرضًا مع التخفيف لأهل الأعذار.

٢. الدلائل التربوية (في تربية النبي ﷺ وأصحابه):

أ- تدرج الأمر بالجهاد:

- المرحلة المكية (الصبر والكف عن القتال):

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) [الروم: ٦٠].

- المرحلة المدنية (الإذان بالقتال دفاعاً):

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا) [الحج: ٣٩].

- المرحلة المتقدمة (فرض الجهاد):

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) [التوبة: ٣٦].

ب- تدرج الدعوة نفسها:

بدأت بالسر ((وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [الشعراء: ٢١٤])، ثم الجهر العام، مرورًا بمراحل الابتلاء والصبر، حتى مرحلة التمكين.

٣. الدلائل النصية (نصوص تشير إلى فلسفة التدرج):

أ- نزول القرآن منجماً (مفرقاً):

(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا) [الإسراء: ١٠٦].

فكلمة "على مُكْث" تعني على مهل وتؤدة، وهي جوهر التدرج.

ب- التدرج في التكليف بما يتناسب مع القدرة:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة: ٢٨٦].

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [الحج: ٧٨].

ج- التدرج في تغيير المنكر (كأساس للفقه الاجتماعي):

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل: ١٢٥].

فهذه الآية ترسم منهجًا تدرجيًا في الدعوة: تبدأ بالحكمة (أعلى المراتب) ثم الموعظة (لعموم الناس) ثم المجادلة (مع المعاند).

الخلاصة:

يؤصل القرآن الكريم لسنة التدرج تأصيلاً قويًا، من خلال:

١. التطبيق العملي في تشريع أهم الأحكام الاجتماعية والاقتصادية.

٢. المنهج التربوي في بناء الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم.

٣. النصوص الصريحة التي تعلل هذا المنهج وتؤكده، مما يجعله سنة إلهية وليس مجرد أسلوب ظرفي. وهذا يؤكد أن التدرج هو منهج رباني حكيم، وليس تنازلاً أو ضعفاً.

المبحث الثاني: التدرّج في السنة النبوية والتطبيق العملي للتشريع.

إذا كان القرآن قد أصل لسنة التدرج تنظيراً وتشريعاً، فإن السنة النبوية جاءت التطبيق الحي والعملي لهذا المنهج، حيث نفذه النبي ﷺ في جميع مجالات الدعوة والتربية والتشريع.

أولاً: التدرج في التربية والبناء الإيماني

١. البناء العقدي المتين أولاً:

بدأ الرسول ﷺ دعوته في مكة بترسيخ العقيدة ومحاربة الشرك، وتثبيت مفهوم التوحيد، ولم يفرض التكاليف العملية إلا بعد اكتمال هذا الأساس.

- الدليل: قوله ﷺ لمعاذ بن جبل حين أرسله إلى اليمن: "إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله..." (متفق عليه).

٢. التدرج في فرض العبادات:

- الصلاة: فرضت أولاً ركعتين، ثم زيدت في الحضر إلى أربع مع بقاء السفر على ركعتين.
- الصيام: كما ذكر في القرآن، وكان التخيير في البداية بين الصوم والإطعمة.

ثانياً: التدرج في تغيير المنكرات والعادات الاجتماعية

١. تحريم الخمر تطبيقياً:

طبق النبي ﷺ المراحل القرآنية عملياً. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً"، فنزلت الآيات بالتدريج. وكان ﷺ يتلقى كل مرحلة ويطبقها، إلى أن بلغ التحريم القاطع، فأعلنها صريحة: "إن الله حرم الخمر" (رواه مسلم).

٢. القضاء على عادة الوأد (قتل البنات):

لم يواجهها النبي ﷺ بعقوبة فورية، بل عالجها عبر:

- تغيير الوعي: ببيان قبحها وجرمها.
- تغيير القيم: بالترغيب في تربية البنات والإحسان إليهن.
- النمذجة العملية: كان ﷺ يُظهر حبه لفاطمة ويقول: "فاطمة بضعة مني" (متفق عليه).

٣. معالجة عادة الزنا:

لم يطبق حد الزنا مباشرة في مجتمع اعتاده، بل بدأ ب:

- تغيير المفاهيم عن العرض والشرف.
- تشريع الزواج لتوفير البديل الحلال.
- ثم تطبيق الحد بعد تكوين المجتمع المسلم الواعي، كما في حد ماعز والغامدية.

ثالثاً: التدرج في التشريعات والأحكام

١. تشريع الآذان:

عندما هم الصحابة بطرق لإعلام الناس بوقت الصلاة، تدرجوا في الاقتراحات (الناقوس، البوق...) إلى أن استقر الأمر على الآذان بعد رؤيا عبدالله بن زيد وإقرار النبي ﷺ لها.

٢. تحريم التبرج والاختلاط:

بدأ بغض البصر (قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾) ثم الأمر بالحجاب تدريجياً، من خلال آيات سورة النور ثم آيات الحجاب في سورة الأحزاب.

رابعاً: التدرج في التخطيط السياسي والعسكري

١. مراحل الدعوة:

- السرية: ثلاث سنوات.
- الجهر مع الصبر على الأذى.
- الهجرة إلى الحبشة لحفظ الدين.
- بيعة العقبة وتأسيس النواة السياسية.
- الهجرة إلى المدينة وبناء الدولة.

٢. تدرج العلاقات الدولية:

- من عهد الصحيفة (دستور الدولة النبوية) الذي نظم العلاقة بين المسلمين وغيرهم.
- إلى مرحلة المواجهة مع قريش (غزوة بدر).
- إلى مرحلة المعاهدات (صلح الحديبية).
- إلى مرحلة فتح مكة والسيطرة الكاملة.

خامساً: التدرج في التعامل مع الأخطاء والزلات

١. الترفق بالوافدين الجدد:

عندما جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: "أصبت من امرأة أريد أن أتزوجها"، فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن: "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ" (هود: ١١٤). فلم يعنفه، بل بين له طريق التوبة.

٢. التدرج في النهي عن المنكر:

تطبيقاً للحديث: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (رواه مسلم). وهو تدرج في الوسيلة حسب القدرة.

الدروس المستفادة من التطبيق النبوي للتدرج:

١. الحكمة والموعظة الحسنة: كانت أساس تعامله ﷺ مع الناس.

٢. مراعاة النفس البشرية: وعدم تكليفها ما لا تطيق.

٣. الأولويات: البدء بالأهم فالمهم.

٤. الواقعية: فهم الواقع قبل إصدار الأحكام.

٥. التربية قبل العقوبة: بناء القناعة الداخلية قبل الإلزام الخارجي.

الخلاصة:

كانت السنة النبوية هي الميدان العملي الذي جسدت فيه سنة التدرج بأعلى صور الحكمة والنجاح. فالنبي ﷺ لم يكن مجرد مبلغ للوحي، بل كان قائداً تربوياً ومصلحاً اجتماعياً استخدم المنهج التدريجي في بناء الأفراد والمجتمعات والدول، مما يجعله النموذج الأمثل لكل داعية ومربٍ ومصلح في كل عصر.

الفصل الثاني: صور التدرّج في التشريع القرآني

يُعـدُّ التشـريع القرآنـي النمـوذج الأمثـل للتـدرج، حيـث رسـم المنهجيـة المثلـى لبنـاء الإنسان والمجتمع. ويمكن تصنيف صور هذا التدرج إلى عدة محاور رئيسية:

المبحث الأول: التدرج في التشريعات الفردية (العبادات)

١. الصلاة:

- كيف كانت في البداية؟ (ركعتين فقط)
- التدرج في أوقاتها وعدد ركعاتها.
- التخفيف في حالات الخوف والسفر.
- الأثر: بناء عادة الصلاة في النفوس دون إرهاق.

٢. الصيام:

- المرحلة الأولى: التخيير بين الصوم والإطعام.
- المرحلة الثانية: فرض الصوم مع التخفيف (الإفطار للمريض والمسافر).
- الأثر: مراعاة طاقة البشر وتحمُّل المشقة بالتدريج.

٣. الزكاة:

- كيف تم ذكرها في القرآن أولاً كصدقة تطوعية؟
- التدرج في تحديد الأنصبة والمقادير.
- الأثر: تعويد المسلمين على البذل والعطاء بشكل منتظم.

المبحث الثاني: التدرج في التشريعات الاجتماعية والأسرية

١. الأسرة والمرأة:

- التدرج في تحسين وضع المرأة (الوصية بالنساء خيرًا – الميراث – الحقوق الكاملة).
- التدرج في تقييد الطلاق (العدة – الإرجاء –الحدود).
- الأثر: إصلاح البنية الاجتماعية دون صدمات.

٢. تحريم الخمر والميسر:

- المراحل الثلاث (الذم – المنع الجزئي – التحريم القاطع).
- الأثر: تطهير المجتمع من الآفات تدريجيًا.

المبحث الثالث: التدرج في التشريعات الاقتصادية

١. تحريم الربا:

- البدء بالذم الأدبي.
- ثم التحريم القاطع مع بيان البديل (البيع).
- الأثر: إعادة هيكلة الاقتصاد بشكل متوازن.

٢. تشريع البيوع والمعاملات:

- التدرج في تحريم بعض البيوع الفاسدة.
- وضع الضوابط العامة ثم التفصيلات.

المبحث الرابع: التدرج في التشريعات الجنائية

١. العقوبات:

- كيف تم التدرج في تشريع الحدود؟
- مثال: حد الزنا (بدأ بالوعيد – ثم الجلد – ثم الرجم للمحصن).
- الأثر: ضمان العدالة مع الرحمة.

٢. القصاص والديات:

- التدرج من الثأر الجاهلي إلى القصاص العادل.
- الأثر: تحقيق الأمن المجتمعي.

المبحث الخامس: التدرج في التشريعات الدولية

١. الجهاد:

- المرحلة المكية (الصبر والكف).
- المرحلة المدنية (الإذان بالقتال – فرض الجهاد).
- الأثر: بناء أمة قادرة على الدفاع عن نفسها.

٢. العلاقات الدولية:

- من الدعوة السلمية إلى المعاهدات.
- تنظيم العلاقات مع غير المسلمين.

الدروس المستفادة

١. الرحمة بالخلق: كل تشريع يحمل رحمة للناس.

٢. مراعاة الطبائع البشرية: الفطرة لا تتغير فجأة.

٣. ضمان الاستقرار الاجتماعي: التغيير التدريجي يضمن الاستقرار.

٤. تحقيق المقاصد الشرعية: التدرج وسيلة لتحقيق المصالح.

هذا التدرج يشهد بأن القرآن من عند الله الحكيم العليم بخلقه.

التدرّج في العقيدة والدعوة إلى التوحيد.

يمثل التدرج في بناء العقيدة والدعوة إلى التوحيد النموذج الأروع في المنهج القرآني، حيث اتخذ خطوات محكمة لنقل الناس من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد.

أولاً: التدرج في الدعوة المكية

١. مرحلة الدعوة السرية (٣ سنوات):

- بدأ الرسول ﷺ بدعوة أقرب الناس إليه (أهل بيته وأصدقائه المخلصين).
- الحكمة: بناء نواة مؤمنة قادرة على تحمل تبعات المراحل القادمة.
- الأثر: تكوين قاعدة انطلاق للدعوة العامة.

٢. مرحلة الدعوة الجهرية:

- بدأت بقوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الحجر: ٩٤]
- المنهج:
- الدعوة إلى التوحيد الخالص
- محاربة الشرك والعبادات الباطلة
- التركيز على البعث والجزاء

٣. مرحلة المواجهة والاصطدام:

- زيادة شدة المواجهة مع المشركين
- نزول سور تتحدث عن مصير الأمم السابقة
- الأثر: ترسيخ العقيدة في نفوس المؤمنين

ثانياً: التدرج في بناء العقيدة

١. البدء بالأصول الكبرى:

- التركيز على:

توحيد الربوبية

توحيد الألوهية

الإيمان بالبعث والجزاء

- نماذج قرآنية:

سورة الأعلى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}

سورة الكوثر: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}

٢. التدرج في تقرير النبوة:

- بدأ بالتعريف برسالة النبي صلى الله عليه وسلم
- ثم الإشارة إلى الأنبياء السابقين

- البراهين على صدق النبوة

٣. التدرج في مسألة القضاء والقدر:

- بدأ بالإيمان العام
- ثم التفصيل في المراحل اللاحقة

ثالثاً: التدرج في محاربة الشرك

١. البدء بالشرك الظاهر:

- محاربة عبادة الأصنام
- نقد المعتقدات الوثنية
- آيات: {أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ} [الأنبياء: ٦٦]

٢. ثم معالجة الشرك الخفي:

- الرياء
- التسوية بين الله وغيره
- آيات: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]

رابعاً: التدرج في تربية المؤمنين

١. التربية على الصبر:

- أمثلة قرآنية:

قصة أصحاب الأخدود

أنبياء الله وصبرهم

- آيات: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ} [لقمان: ١٧]

٢. التربية على الثبات:

تثبيت المؤمنين في المواقف الصعبة

آيات: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [إبراهيم: ٢٧]

٣. التربية على الأخلاق:

- الدعوة إلى مكارم الأخلاق
- التحلي بالصبر والحلم
- آيات: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]

خامساً: التدرج في العلاقة مع غير المسلمين

١. المرحلة المكية:

- الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة
- آيات: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل: ١٢٥]

٢. المرحلة المدنية:

- تنظيم العلاقات مع غير المسلمين
- وضع الضوابط الشرعية
- آيات: {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ} [الممتحنة: ٨]

الدروس المستفادة:

١. أهمية التأسيس المتين: البدء بالأصول قبل الفروع.

٢. مراعاة الواقع: تقدير ظروف الناس وإمكانياتهم.

٣. الحكمة في الدعوة: اختيار الأسلوب المناسب لكل مرحلة.

٤. الصبر على الدعوة: فهم سنن التمكين والابتلاء.

٥. التربية المتدرجة: بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة.

يشكل التدرج في العقيدة والدعوة إلى التوحيد النموذج الأمثل للبناء الفكري والعقدي، حيث يجمع بين الثبات على المبادئ والمرونة في الأسلوب، مع مراعاة الفطرة البشرية وسنن التغيير الاجتماعي.

التدرّج في التشريعات الاجتماعية

(تحريم الخمر، الربا، الزنا...)

يمثل التدرج في التشريعات الاجتماعية النموذج الأبرز لحكمة التشريع الإسلامي، حيث تعامل القرآن الكريم مع عادات راسخة في النفوس والمجتمعات بمنهجية تربوية متأنية، تهدف إلى تحقيق التطهير التدريجي للمجتمع مع الحفاظ على تماسكه.

أولاً: التدرج في تحريم الخمر

المرحلة الأولى: بيان ضررها الأدبي والأخلاقي

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

[النحل: ٦٧]

الحكمة: الإشارة إلى أن السكر ليس من الرزق الحسن، وتنبيه العقول إلى التفريق بينهما.

المرحلة الثانية: بيان ضررها العبادي والاجتماعي

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[النساء: ٤٣]

الحكمة: منعها في أوقات العبادة لربط التحريم بشعيرة مقدسة، وتهيئة النفوس للانفصال عنها.

المرحلة الثالثة: التحريم القاطع والنهي الصريح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)

[المائدة: ٩٠-٩١]

الحكمة: تحريم قاطع بعد التهيئة النفسية والاجتماعية، مع بيان الحكمة الكاملة للتحريم.

ثانياً: التدرج في تحريم الربا

المرحلة الأولى: الذم الأدبي والوعيد في الآخرة

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ)

[الروم: ٣٩]

الحكمة: التفريق بين الربا والزكاة، وبيان أن الربا لا بركة فيه.

المرحلة الثانية: التحريم القاطع مع بيان علة التحريم

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

[البقرة: ٢٧٥]

الحكمة: بيان التحريم مع التفريق بين البيع والربا، وإعطاء فرصة للتوبة.

المرحلة الثالثة: الأمر بالتخلي عن أصل المال والتوبة النصوح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنُونَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ)

[البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]

الحكمة: تطهير الأموال والمجتمع من آثار الربا، مع التهديد الشديد للمصرين عليه.

ثالثاً: التدرج في تحريم الزنا

المرحلة الأولى: غض البصر وحفظ الفرج

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[النور: ٣٠]

الحكمة: العلاج الوقائي بقطع الطرق الموصلة إلى الزنا.

المرحلة الثانية: النهي عن الاقتراب من الفواحش

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)

[الإسراء: ٣٢]

الحكمة: النهي عن الوسائل المفضية إلى الزنا قبل النهي عن الفعل نفسه.

المرحلة الثالثة: تحديد العقوبة الرادعة

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[النور: ٢]

الحكمة: بعد بناء المجتمع الإيماني، شرعت العقوبة الرادعة للحفاظ على حرمات الله.

رابعاً: التدرج في تحريم القمار (الميسر)

المرحلة الأولى: بيان مضاره الاجتماعية

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)

[البقرة: ٢١٩]

الحكمة: الاعتراف بوجود منافع ظاهرية مع بيان أن الإثم أكبر.

المرحلة الثانية: التحريم القاطع مع الخمر

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[المائدة: ٩٠]

الحكمة: التحريم النهائي بعد التهيئة الكافية.

الدروس المستفادة من التدرج في التشريعات الاجتماعية:

١. الحكمة في تغيير المنكرات: لا يكون بالتغيير المفاجئ، بل بالتدريج مع مراعاة واقع الناس.

٢. مراعاة الطبيعة البشرية: النفس البشرية تتعلق بالعادات، فلا يمكن انتزاعها فجأة.

٣. البناء التربوي: التركيز على تربية الضمير قبل تطبيق العقوبة.

٤. تحقيق المصلحة: الموازنة بين مصلحة الفرد والمجتمع خلال عملية التغيير.

٥. الواقعية: فهم العمق الاجتماعي للعادات والتقاليد قبل محاربتها.

يظهر التدرج في التشريعات الاجتماعية روعة المنهج الإسلامي في الإصلاح، حيث يجمع بين الثبات على المبادئ والمرونة في الأسلوب، وبين المحافظة على قيم المجتمع وتهذيبه من العادات الضارة، مما يجعله منهجًا ناجحًا للإصلاح الاجتماعي في كل زمان ومكان.

المبحث الثالث: التدرّج في التشريعات التعبدية والسياسية

(الصلاة، الجهاد...)

يُعد التدرج في التشريعات التعبدية والسياسية من أبرز مظاهر حكمة التشريع الإسلامي، حيث راعى القرآن الكريم والسنة النبوية طبيعة الإنسان وقدرته على التلقي والتطبيق، فجاءت هذه التشريعات متدرجة في فرضها وتنفيذها.

أولاً: التدرج في التشريعات التعبدية

١. الصلاة: البناء المتدرج لعماد الدين

المرحلة الأولى: التهيئة النفسية والروحية

- بدأت الدعوة إلى الصلاة في المرحلة المكية بتعويد المؤمنين على ذكر الله وعبادته.

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢]

- الحكمة: تدريب النفوس على القيام والعبادة في ظل الظروف الصعبة.

المرحلة الثانية: فرض الصلاة بالإسراء والمعراج

- قبل الهجرة بثلاث سنوات، فُرضت الصلاة خمسين مرة، ثم خففت إلى خمس.

- الحديث: "فَرَضَ اللهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمُرَّ بِمُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً. قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ..." (متفق عليه)

المرحلة الثالثة: التدرج في عدد الركعات

- بدأت الصلاة ركعتين لكل صلاة.

- ثم زيدت في الحضر إلى أربع، وبقيت في السفر على ركعتين.

- الحكمة: مراعاة ظروف المكلفين وقدراتهم.

المرحلة الرابعة: تكامل التشريع

- تحديد أوقات الصلاة: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]

- تشريع صلاة الخوف: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢]

٢. الصيام: التدرج في فرض العبادة

المرحلة الأولى: التخيير

- قوله تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ) [البقرة: ١٨٤]
- الحكمة: التهيئة النفسية والبدنية للصوم.

المرحلة الثانية: الفرض مع التخفيف

- (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) [البقرة: ١٨٥]
- مع الرخصة للمريض والمسافر: (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) [البقرة: ١٨٤]

٣. الزكاة: التدرج في فرض الضريبة الاجتماعية

- بدأت ندباً وتطوعاً في مكة.
- ثم فرضت في المدينة بنسب محددة.
- قوله تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) [التوبة: ١٠٣]

ثانياً: التدرج في التشريعات السياسية

١. الجهاد: التدرج في تشريع الدفاع والقتال

المرحلة الأولى: الكف عن القتال

- في المرحلة المكية: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) [الروم: ٦٠]
- الحكمة: بناء القاعدة العقدية والإيمانية أولاً.

المرحلة الثانية: الإذن بالقتال دفاعاً

- بعد الهجرة: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [الحج: ٣٩]
- الحكمة: حق الدفاع عن النفس والعقيدة.

المرحلة الثالثة: فرض الجهاد هجومياً

- بعد تكوين الدولة: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) [التوبة: ٣٦]
- الحكمة: حماية الدعوة الإسلامية ونشرها.

المرحلة الرابعة: تنظيم قواعد الجهاد

- (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) [الأنفال: ٦١]

- (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [البقرة: ١٩٠]

٢. بناء الدولة: التدرج في تأسيس النظام السياسي

المرحلة الأولى: البيعة والتأسيس

- بيعة العقبة الأولى والثانية.
- تأسيس نواة الدولة في المدينة.

المرحلة الثانية: دستور الدولة

- وثيقة المدينة التي نظمت العلاقة بين المسلمين وغيرهم.
- قوله تعالى: (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) [الشورى: ٣٨]

المرحلة الثالثة: العلاقات الدولية

- تنظيم العلاقات مع القبائل والدول.
- قوله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) [التوبة: ٦]

٣. التشريع القضائي: التدرج في تطبيق الحدود

- البدء بالتربية والإقناع.
- ثم التدرج في تطبيق العقوبات.
- قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) [البقرة: ١٧٩]

الدروس المستفادة:

١. مراعاة القدرات البشرية في تلقي الأحكام وتطبيقها.

٢. الأولويات في التشريع البدء بالأهم فالمهم.

٣. الموازنة بين المثالية والواقعية في التطبيق.

٤. التربية قبل العقوبة في الجانب التعبدي.

٥. التهيئة النفسية والاجتماعية قبل فرض الأحمال.

٦. المرونة في التطبيق مع الثبات على المبادئ.

يظهر التدرج في التشريعات التعبدية والسياسية روعة المنهج الإسلامي في بناء الشخصية المسلمة والمجتمع المسلم، حيث يجمع بين التربية الإيمانية والتشريع العملي، وبين الثبات على المبادئ والمرونة في التطبيق، مما يجعله صالحاً لكل زمان ومكان، وقادراً على مواجهة التحديات والمتغيرات.

الفصل الثالث: المقاصد الشرعية من سُنّة التدرّج

تمثل سنة التدرج في التشريع الإسلامي تجسيداً عملياً للرحمة الإلهية والحكمة الربانية في التعامل مع البشر، وهي ليست مجرد أسلوب عرض تاريخي، بل تحقق جملة من المقاصد الشرعية العليا التي تسعى الشريعة لتحقيقها.

المبحث الأول: المقاصد التربوية والنفسية

١. مراعاة الطبيعة البشرية:

- ☐ النفس البشرية مجبولة على التدرج في تلقي المعارف وتطبيق الأحكام.
- ☐ قوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) [النساء: ٢٨]
- ☐ المقصد: عدم تكليف الإنسان بما لا يطيق، تحقيقاً للعدل والرحمة.

٢. التربية المتأنية:

- ☐ بناء الشخصية المسلمة المتزنة عبر مراحل متتابعة.
- ☐ قوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ) [البقرة: ٢١٦]
- ☐ المقصد: تعويد النفوس على الطاعة والتكليف تدريجياً.

٣. تحقيق الانسجام الداخلي:

- ☐ التوفيق بين متطلبات الروح وحاجات الجسد.

- التدرج في العبادات كالصيام والصلاة.
- المقصد: بناء الشخصية المتكاملة التي توازن بين الحقوق والواجبات.

المبحث الثاني: المقاصد الاجتماعية

١. استقرار البناء الاجتماعي:

- تجنب الصدمات المجتمعية الناتجة عن التغيير المفاجئ.
- التدرج في إلغاء العبودية وتحريم الخمر.
- المقصد: الحفاظ على تماسك النسيج الاجتماعي.

٢. تحقيق الإصلاح الشامل:

- معالجة المشكلات من جذورها لا من ظواهرها.
- قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد: ١١]
- المقصد: إحداث تغيير حقيقي ودائم في المجتمع.

٣. التكافل الاجتماعي:

- التدرج في تشريع الزكاة والصدقات.
- قوله تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) [التوبة: ١٠٣]
- المقصد: بناء مجتمع متعاون متكافل.

المبحث الثالث: المقاصد التشريعية

١. رفع الحرج وجلب التيسير:

- قوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [الحج: ٧٨]
- قوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة: ١٨٥]
- المقصد: التخفيف على المكلفين وعدم تكليفهم فوق طاقتهم.

٢. تحقيق العدالة التشريعية:

- مراعاة ظروف المكلفين وقدراتهم.
- التدرج في تطبيق الحدود والعقوبات.
- المقصد: تحقيق العدل الذي هو غاية الشريعة.

٣. حفظ مقاصد الشريعة الخمسة:

- حفظ الدين: بالتدرج في تشريع الجهاد والعبادات.
- حفظ النفس: بالتدرج في تحريم القتل والانتحار.
- حفظ العقل: بالتدرج في تحريم الخمر.
- حفظ النسل: بالتدرج في تشريع الزواج وتحريم الزنا.
- حفظ المال: بالتدرج في تحريم الربا وتشريع الزكاة.

المبحث الرابع: المقاصد الدعوية

١. الحكمة في الدعوة:

- قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [النحل: ١٢٥]
- المقصد: تحقيق القبول والاستجابة للدعوة.

٢. مراعاة أحوال المدعوين:

- البدء بالأهم فالمهم.
- التدرج في عرض الأحكام.
- المقصد: عدم تنفير المدعوين وإيصال الرسالة بشكل فعال.

٣. تحقيق الاستمرارية:

- بناء قاعدة شعبية مؤمنة بالدعوة.
- قوله تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) [المائدة: ٢]
- المقصد: ضمان استمرار الدعوة وانتشارها.

المبحث الخامس: المقاصد الحضارية

١. بناء الحضارة المتوازنة:

- ☐ الجمع بين الثبات على المبادئ والمرونة في التطبيق.
- ☐ التدرج في تشريع النظام الاقتصادي والسياسي.
- ☐ المقصد: إقامة حضارة إسلامية متكاملة.

٢. الاستدامة الحضارية:

- ☐ البناء المتدرج الذي يضمن الاستمرار.
- ☐ قوله تعالى: (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) [الشورى: ٣٨]
- ☐ المقصد: ضمان بقاء الأمة وقدرتها على التجدد.

٣. التواصل الحضاري:

- ☐ التدرج في العلاقات مع الأمم الأخرى.
- ☐ قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [الحجرات: ١٣]
- ☐ المقصد: تحقيق التعايش والتعارف بين الحضارات.

تمثل سنة التدرج نسقاً مقاصدياً متكاملاً، حيث تتداخل المقاصد السابقة لتشكل رؤية متكاملة للبناء الإنساني والحضاري، وتؤكد أن الشريعة الإسلامية جاءت لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، مع مراعاة ظروفهم وإمكاناتهم، مما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، وقادرة على مواجهة التحديات والمتغيرات، محققةً بذلك الحكمة من التشريع وهي رحمة الله بالعباد.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: ١٠٧]

المبحث الثالث: التوازن بين المثال والواقع (بين الكمال الإلهي والقدرة البشرية).

يمثل هذا التوازن أحد أعمق الحكم من سنة التدرج في التشريع الإسلامي، حيث يجسد المنهج الوسطي في التعامل مع التناقض الظاهري بين المثالية التشريعية والواقع البشري المحدود.

أولاً: طبيعة العلاقة بين الكمال الإلهي والقدرة البشرية

١. الكمال المطلق للشريعة:

- المصدر الإلهي: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: ٩]
- الشمول والكمال: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) [المائدة: ٣]

٢. النقص الطبيعي في القدرة البشرية:

- الضعف الأصيل: (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) [النساء: ٢٨]

- محدودية الإدراك: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء: ٨٥]

ثانياً: مظاهر التوازن في سنة التدرج

١. التدرج في التكليف:

- من السهل إلى الصعب
- من القليل إلى الكثير
- مثال الصلاة: بدأت ركعتين ثم تطورت
- الحكمة: التلاؤم مع الطاقة البشرية المحدودة

٢. التدرج في التحريم:

- الخمر: من الذم إلى المنع الجزئي إلى التحريم الكلي
- الربا: من الذم إلى التحريم مع التدرج في التطبيق
- الحكمة: مراعاة العادات الراسخة في النفوس

٣. التدرج في البناء الاجتماعي:

- من الأسرة إلى القبيلة إلى المجتمع
- من الدعوة السرية إلى الجهرية إلى الدولة
- الحكمة: البناء المتين القادر على الاستمرار

ثالثاً: الآليات التشريعية لتحقيق التوازن

١. التيسير ورفع الحرج:

- ☐ (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [البقرة: ١٨٥]
- ☐ الرخصة والعذر: المرض، السفر، الإكراه

٢. مراعاة الفروق الفردية:

- ☐ التكليف على قدر الوسع
- ☐ (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة: ٢٨٦]

٣. الموازنة بين المصالح والمفاسد:

- ☐ تقديم أعلى المصلحتين
- ☐ درء أعلى المفسدتين

رابعاً: النتائج المترتبة على تحقيق التوازن

١. الاستقرار النفسي:

- ☐ الطمأنينة بدل القلق
- ☐ الرضا بدل الإحباط

٢. الاستمرارية:

- ☐ الثبات في التطبيق

☐ التجدد في الوسائل

٣. الواقعية:

☐ الفهم العميق للطبيعة البشرية

☐ التطبيق العملي المناسب

خامساً: تطبيقات معاصرة للتوازن

١. في مجال الإصلاح الاجتماعي:

☐ التدرج في تغيير المنكرات

☐ الموازنة بين التغيير والحفاظ على الاستقرار

٢. في مجال الدعوة:

☐ مراعاة مستويات المدعوين

☐ التدرج في عرض الأحكام

٣. في مجال التشريع:

☐ مراعاة ظروف العصر

☐ الموازنة بين الثوابت والمتغيرات

إن سنة التدرج تمثل الجسر الذي يصل بين الكمال الإلهي في التشريع والقدرة البشرية المحدودة في التطبيق، محققةً التوازن المنشود بين:

- المثالية والواقعية
- الثبات والمرونة
- الأصالة والمعاصرة
- الفردية والجماعية

وهذا التوازن هو سر خلود الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وهو ما يجعلها قادرة على قيادة البشرية نحو الكمال الممكن، لا الكمال المطلق، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، حيث يجسد الرسول ﷺ في سنته التطبيق العملي لهذا التوازن بين المثال والواقع.

الفصل الرابع: التدرّج في الاجتهاد والفتوى المعاصرة

يُعدُّ التدرج في الاجتهاد والفتوى من أهم الضوابط المنهجية التي تضبط حركة الاجتهاد في الواقع المعاصر، وتحقق التوازن بين الثوابت الشرعية والمتغيرات الواقعية.

المبحث الأول: ضوابط التدرج في الاجتهاد المعاصر

١. مراعاة تغير الأحوال والظروف:

- ☐ الاجتهاد في النوازل والمستجدات يراعي ظروف العصر.
- ☐ قاعدة: "تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال"
- ☐ مثال: فتاوى المعاملات المالية المعاصرة.

٢. التدرج في تغيير الفتوى:

- ☐ عدم المفاجأة في تغيير الفتاوى المألوفة.
- ☐ التمهيد والتوعية قبل إصدار الفتوى الجديدة.
- ☐ مثال: فتاوى الطب الحديث ومسائل العلاج.

٣. مراعاة القدرة والاستطاعة:

- ☐ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]
- ☐ تقدير الظروف الخاصة والعامة للمكلفين.

المبحث الثاني: مجالات تطبيق التدرج في الفتوى المعاصرة

١. القضايا الطبية المستجدة:

- ☐ فتاوى زراعة الأعضاء والتبرع بها.
- ☐ قضايا الإنجاب المساعد وأطفال الأنابيب.
- ☐ المنهج: التدرج في الحكم حسب تطور الضوابط الطبية والأخلاقية.

٢. القضايا المالية والاقتصادية:

- ☐ التدرج في تطبيق الصيغ الإسلامية في البنوك.
- ☐ مراعاة الظروف الاقتصادية في فتاوى الزكاة والضرائب.
- ☐ المنهج: الموازنة بين المقاصد الشرعية والواقع الاقتصادي.

٣. قضايا المرأة والأسرة:

- ☐ التدرج في معالجة قضايا المرأة المعاصرة.
- ☐ مراعاة العرف والتقاليد في فتاوى العلاقات الأسرية.
- ☐ المنهج: الجمع بين النصوص الشرعية والواقع الاجتماعي.

٤. القضايا السياسية والعلاقات الدولية:

- ☐ فتاوى الجهاد والعلاقات مع غير المسلمين.
- ☐ قضايا المواطنة والعيش في المجتمعات غير المسلمة.

- المنهج: مراعاة الموازنات والمصالح المرسلة.

المبحث الثالث: منهجية التدرج في الاجتهاد الجماعي

١. التدرج في دراسة القضايا المستجدة:

- تشكيل لجان متخصصة.
- دراسة متأنية شاملة للقضية من جميع جوانبها.
- مثال: قرارات المجامع الفقهية الدولية.

٢. التدرج في إصدار القرارات:

- البدء بالتوصيات.
- ثم الفتوى المؤقتة.
- ثم الفتوى النهائية.
- الضابط: توفر الأدلة واكتمال الدراسة.

٣. التدرج في التطبيق:

- المرحلة التجريبية.
- التطبيق الجزئي.
- التطبيق الشامل.
- الضابط: تحقيق المصلحة ودرء المفسدة.

المبحث الرابع: ضوابط التدرج في الإفتاء الفردي

١. مراعاة حال المستفتي:

- ☐ النظر في ظروفه وقدراته.
- ☐ التدرج في نصحه وتوجيهه.
- ☐ الضابط: الحكمة والموعظة الحسنة.

٢. التدرج في تغيير المنكر:

- ☐ تطبيق حديث تغيير المنكر باليد ثم اللسان ثم القلب.
- ☐ الضابط: القدرة والاستطاعة.

٣. الموازنة بين المصالح والمفاسد:

- ☐ تقديم أعلى المصلحتين.
- ☐ درء أعلى المفسدتين.
- ☐ الضابط: تحقيق مقاصد الشريعة.

المبحث الخامس: التحديات المعاصرة وضوابط التعامل معها

١. ضغط المستجدات السريعة:

- ☐ خطر التسرع في الفتوى.
- ☐ ضرورة التأني والدراسة المتعمقة.

- ☐ الضابط: "التثبت في الفتوى نصف العلم"

٢. تعدد المذاهب والآراء:

- ☐ خطر التشتت والاضطراب.
- ☐ ضرورة التدرج في تقريب المذاهب.
- ☐ الضابط: الوحدة في الجوهر، التعدد في الفروع.

٣. تأثير الإعلام والفضاء الرقمي:

- ☐ سرعة انتشار الفتاوى.
- ☐ خطر الفتاوى الشاذة.
- ☐ الضابط: التدرج في التصحيح والتوعية.

المبحث السادس: آليات ضبط التدرج في الاجتهاد المعاصر

١. التأهيل العلمي للمفتي:

- ☐ التدرج في طلب العلم.
- ☐ إتقان علوم الآلة.
- ☐ الضابط: "لا يفتي إلا عالم"

٢. التقنين المؤسسي للفتوى:

- ☐ دور المجامع الفقهية.

- هيئات كبار العلماء.
- الضابط: الضبط المؤسسي للاجتهاد.

٣. التدرج في تطبيق الأحكام:

- مراعاة الظروف الاستثنائية.
- تطبيق قاعدة "الضرورات تبيح المحظورات"
- الضابط: الضرورة تقدر بقدرها.

يمثل التدرج في الاجتهاد والفتوى المعاصرة منهجية متوازنة تحقق:

١. الربانية: بالالتزام بالنصوص الشرعية.

٢. الواقعية: بمراعاة ظروف العصر.

٣. المرونة: بالتدرج في التطبيق.

٤. الحكمة: بمراعاة المصالح والمفاسد.

وهذا يجعل الاجتهاد المعاصر قادراً على:

- مواكبة المستجدات.
- معالجة المشكلات.
- تحقيق مقاصد الشريعة.
- خدمة المجتمع الإسلامي.

وبـذلك تتحقـق الحكمـة مـن الاجتهـاد، وهـي تحقيـق مقاصـد الشـريعة في حفـظ الـدين والـنفس والعقـل والنسـل والمـال، في إطـار مـن التـوازن والاعتـدال، بعيـداً عـن التشـدد والتفريط.

المبحث الأول: أثر التدرّج في فقه الدعوة والإصلاح الاجتماعي

يُعـد التـدرج مـن الأسـس المنهجيـة المركزيـة في فقـه الـدعوة والإصـلاح الاجتمـاعي، حيـث يمثـل الإطـار العملـي لتحقيـق التغـيير الفعـال والاسـتدامة في المشـاريع الإصلاحية.

أولاً: الأسس النظرية للتدرج في الدعوة والإصلاح

١. الأسس الشرعية:

- قولـه تعـالى: ﴿ادْعُ إِلَـى سَـبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ﴾ [النحـل: ١٢٥]
- قولـه تعـالى: ﴿فَاصْـبِرْ إِنَّ وَعْـدَ اللَّـهِ حَـقٌّ وَلَـا يَسْـتَخِفَّنَّكَ الَّـذِينَ لَـا يُوقِنُـونَ﴾ [الروم: ٦٠]

٢. الأسس الواقعية:

- طبيعة النفس البشرية القابلة للتدرج
- السنن الاجتماعية في التغيير
- ضرورة مراعاة الظروف المحيطة

ثانياً: مراحل التدرج في الدعوة الفردية

١. مرحلة التعارف والبناء النفسي:

- ☐ كسب الثقة وبناء العلاقة
- ☐ دراسة احتياجات المدعو ونفسيته
- ☐ المنهج النبوي: قصة إسلام عمر بن الخطاب

٢. مرحلة البناء العقدي والفكري:

- ☐ غرس أسس الإيمان والعقيدة
- ☐ التدرج في عرض مفاهيم الإسلام
- ☐ المنهج النبوي: تربية الجيل الأول في دار الأرقم

٣. مرحلة البناء العملي:

- ☐ التدرج في التكاليف الشرعية
- ☐ مراعاة الاستعداد والقدرة
- ☐ المنهج النبوي: تدرج فرض الصلوات والعبادات

ثالثاً: منهجية التدرج في الإصلاح الاجتماعي

١. تشخيص الواقع الاجتماعي:

- ☐ دراسة العادات والتقاليد
- ☐ تحديد أولويات الإصلاح
- ☐ مثال: بدء الدعوة بمحاربة الشرك في مكة

٢. تحديد مراحل الإصلاح:

- ☐ المرحلة التحضيرية: التوعية وبناء القناعات
- ☐ المرحلة الانتقالية: تغيير الممارسات تدريجياً
- ☐ المرحلة التأسيسية: ترسيخ القيم والممارسات

٣. آليات التدرج في التغيير الاجتماعي:

- ☐ التغيير عبر الإقناع لا الإكراه
- ☐ الاعتماد على القدوة الحسنة
- ☐ استثمار المؤسسات الاجتماعية

رابعاً: مجالات تطبيق التدرج في الإصلاح المعاصر

١. الإصلاح الأخلاقي:

- ☐ البدء بغرس الفضائل الأساسية
- ☐ معالجة الرذائل الكبرى أولاً
- ☐ مثال: التدرج في محاربة الكذب والغش

٢. الإصلاح الاقتصادي:

- ☐ التدرج في تطبيق المنهج الإسلامي
- ☐ مراعاة الظروف الاقتصادية
- ☐ مثال: التدرج في تحويل المؤسسات للتمويل الإسلامي

٣. الإصلاح السياسي:

- ☐ التدرج في الإصلاح السياسي
- ☐ بناء المؤسسات تدريجياً
- ☐ مثال: تجربة الانتخابات التدريجية

خامساً: معوقات تطبيق منهج التدرج

١. المعوقات الذاتية:

- ☐ ضعف الصبر والاستعجال

- ☐ قلة الخبرة في فن الدعوة
- ☐ عدم فهم السنن الاجتماعية

٢. المعوقات الموضوعية:

- ☐ ضغوط الواقع المعاصر
- ☐ تأثير الإعلام والعولمة
- ☐ مقاومة القوى المعادية للإصلاح

سادساً: ضوابط التدرج في الدعوة والإصلاح

١. الضوابط الشرعية:

- ☐ عدم التنازل عن الثوابت الشرعية
- ☐ التوازن بين المرونة والثبات
- ☐ الضابط: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"

٢. الضوابط المنهجية:

- ☐ وضوح الرؤية والأهداف
- ☐ تحديد الأولويات بدقة
- ☐ المرونة في التطبيق

٣. الضوابط الأخلاقية:

- ☐ الصبر والحلم
- ☐ الرحمة والرفق
- ☐ الحكمة والموعظة الحسنة

يمثل التدرج في الدعوة والإصلاح الاجتماعي منهجية متكاملة تحقق:

١. الفعالية: بتحقيق النتائج الملموسة

٢. الاستدامة: بضمان استمرارية الإصلاح

٣. الواقعية: بمراعاة الظروف المحيطة

٤. الشرعية: بالالتزام بالنصوص الشرعية

وهذا يتطلب من الدعاة والمصلحين:

- ☐ فهم عميق لسنن التغيير الاجتماعي
- ☐ الصبر والحكمة في التعامل مع الواقع
- ☐ المرونة المنضبطة في التطبيق
- ☐ الاستفادة من التجارب النبوية والتاريخية

وبذلك يتحقق قوله تعالى: (وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) [الأحقاف: ٣٥]

المبحث الثالث: الضوابط الشرعية لاستلهام سنة التدرّج في الواقع المعاصر

يُعد تحديد الضوابط الشرعية لاستلهام سنة التدرج في عصرنا الحاضر أمراً بالغ الأهمية، لضمان عدم الانحراف عن المقاصد الشرعية تحت شعار المرونة والتدرج.

أولاً: الضوابط العقدية والأصولية

١. الثبات على الأصول والعقائد:

- التدرج في الوسائل والأساليب لا في الأصول والعقائد.
- قوله تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى) [الشورى: ١٣]
- الضابط: "التدرج في الفروع لا في الأصول"

٢. الالتزام بالنصوص القطعية:

- عدم المساس بالنصوص الشرعية القطعية تحت أي ذريعة.
- الضابط: "لا اجتهاد مع النص"

٣. حفظ مقاصد الشريعة:

- أن يكون التدرج وسيلة لتحقيق المقاصد لا للإخلال بها.
- الضابط: "التدرج لتحقيق المقاصد لا لإهدارها"

ثانياً: الضوابط المنهجية

١. التدرج في الوسائل لا في الغايات:

- ☐ المرونة في الأساليب والوسائل مع الثبات على الغايات.
- ☐ مثال: التدرج في وسائل الدعوة مع الثبات على أهدافها.

٢. الأولويات الشرعية:

- ☐ البدء بالأهم فالمهم في تطبيق التدرج.
- ☐ الضابط: "تقديم الواجب على المندوب، والفرض على النفل"

٣. الموازنة بين المصالح والمفاسد:

- ☐ دراسة الآثار المترتبة على التدرج في التطبيق.
- ☐ الضابط: "درء المفاسد مقدم على جلب المصالح"

ثالثاً: الضوابط التطبيقية

١. مراعاة القدرة والاستطاعة:

- ☐ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]
- ☐ الضابط: "التكليف على قدر الوسع"

٢. التدرج في تغيير المنكر:

- ☐ تطبيق حديث تغيير المنكر باليد ثم اللسان ثم القلب.

- الضابط: "التدرج في الإنكار حسب القدرة"

٣. مراعاة الظروف الاستثنائية:

- تطبيق قاعدة: "الضرورات تبيح المحظورات"
- الضابط: "الضرورة تقدر بقدرها"

رابعاً: الضوابط الأخلاقية

١. الصبر والثبات:

- قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا) [آل عمران: ٢٠٠]
- الضابط: "الجمع بين الصبر والمصابرة"

٢. الرفق واللين:

- قوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ) [آل عمران: ١٥٩]
- الضابط: "الرفق ما كان في شيء إلا زانه"

٣. الحكمة والموعظة الحسنة:

- قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) [النحل: ١٢٥]
- الضابط: "الحكمة ضالة المؤمن"

خامساً: ضوابط التعامل مع المستجدات

١. التدرج في الاجتهاد:

- ☐ التأني في إصدار الأحكام على المستجدات.
- ☐ الضابط: "التبين في الفتوى نصف العلم"

٢. مراعاة تغير الزمان:

- ☐ تطبيق قاعدة: "لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان"
- ☐ الضابط: "مراعاة العرف والعادة في غير مخالفة للنص"

٣. الموازنة بين الثوابت والمتغيرات:

- ☐ التمييز بين ما هو ثابت وما هو متغير في الشريعة.
- ☐ الضابط: "الثوابت للإطار، والمتغيرات للتفاصيل"

سادساً: الضوابط التنظيمية

١. التدرج في بناء المؤسسات:

- ☐ البدء بالبسيط ثم التطور إلى المركب.
- ☐ الضابط: "التأسيس ثم البناء ثم التمكين"

٢. الأولوية للكليات على الجزئيات:

- ☐ البدء بتأسيس الكليات قبل الانشغال بالجزئيات.

- الضابط: "البدء بالأهم فالمهم"

٣. التدرج في التطبيق:

- التجريب ثم التعديل ثم التعميم.
- الضابط: "الخطأ في التقدير أولى من الخطأ في التقديم"

لضمان الاستفادة الصحيحة من سنة التدرج في الواقع المعاصر، لابد من:

١. الالتزام بالضوابط الشرعية وعدم تجاوزها.

٢. الموازنة بين المرونة والثبات في التطبيق.

٣. مراعاة الواقع دون التفريط في الثوابت.

٤. الاستفادة من التراث مع مواكبة العصر.

وبذلك تتحقق الحكمة من التدرج، وهي التيسير على الناس ورفع الحرج عنهم، مع الحفاظ على ثوابت الدين ومقاصده، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أهم النتائج

من خلال الدراسة التأصيلية التحليلية لسنة التدرج في التشريع القرآني في ضوء مقاصد الشريعة، يمكن الخلوص إلى النتائج التالية:

أولاً: النتائج المتعلقة بطبيعة سنة التدرج ومكانتها:

١. سنة التدرج حكمة إلهية وليست مجرد أسلوب تاريخي: أثبتت الدراسة أن التدرج منهج رباني مقصود لذاته، تجلى في تنزيل الأحكام، وتربية النفوس، وبناء المجتمعات، وهو ليس مجرد استجابة ظرفية للواقع المكي أو المدني.

٢. التدرج سمة أساسية للتشريع الإسلامي: يمتاز التشريع الإسلامي بمرونته وواقعيته، والتدرج هو أحد أبرز تجليات هذه المرونة، مما يجعله صالحًا لكل زمان ومكان، وقادرًا على استيعاب تطورات الحياة ومستجداتها.

٣. التدرج يحقق التوازن بين الكمال الإلهي والقدرة البشرية: يقوم التدرج على الموازنة بين المثالية في المقصد والواقعية في التطبيق، بين الكمال التشريعي الإلهي والنقص الطبيعي في القدرة البشرية، مما يجعله منهجًا فريدًا في التكليف.

ثانيًا: النتائج المتعلقة بمقاصد سنة التدرج:

٤. التدرج أداة فاعلة لتحقيق مقاصد الشريعة: يخدم التدرج المقاصد الكبرى للشريعة (حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال) من خلال:

- تحقيق اليسر ورفع الحرج: بتخفيف التكاليف ومراعاة حال المكلف.
- جلب المصلحة ودرء المفسدة: بإدارة عملية التغيير الاجتماعي بشكل يحقق أصلح النتائج وأقلها ضررًا.

- العدل والرحمة: بمراعاة الفروق الفردية والظروف الاجتماعية.

٥. التدرج يحقق الاستقرار النفسي والاجتماعي: يمنع التدرج الصدمات الناتجة عن التغيير المفاجئ، ويؤسس للقناعة الذاتية، مما يضمن استقرار الفرد وتماسك المجتمع وقبول الأحكام.

ثالثًا: النتائج المتعلقة بالتطبيق المعاصر:

٦. إغفال سنة التدرج يؤدي إلى مفاسد كبرى: يؤدي تجاهل هذا المنهج إلى:

- سوء فهم النصوص واتهامها بالتناقض.
- التطبيق الحرفي المتشدد الذي ينفر الناس من الدين.
- الإصلاح العشوائي والتفكك المجتمعي.
- اليأس والإحباط لدى الأفراد والجماعات.

٧. ضرورة استلهام منهج التدرج في مجالات العصر الحيوية: أثبتت الدراسة الحاجة الماسة لتطبيق هذا المنهج في:

- فقه الدعوة: بمراعاة حال المدعو والبدء بالأولويات.
- فقه الإصلاح الاجتماعي: بمعالجة القضايا بشكل تدريجي وواقعي.
- الاجتهاد والفتوى: بالتأني في إصدار الأحكام في المستجدات ومراعاة تغير الظروف.
- التربية والأسرة: ببناء الشخصية المسلمة عبر مراحل متتابعة.

٨. لا يعني التدرج التنازل عن الثوابت: يجب أن يكون استلهام سنة التدرج في الواقع المعاصر محكومًا بضوابط شرعية، أبرزها:

- الثبات على الأصول والعقائد.
- الالتزام بالنصوص القطعية.
- عدم إهدار المقاصد الشرعية.
- الموازنة بين المصالح والمفاسد.

رابعًا: النتيجة الختامية:

٩. سنة التدرج تجسيد عملي لرحمة الإسلام ووسطيته: تبرز هذه السنة صورة الإسلام كدين يرفق بالناس، ويراعي طبيعتهم، ويسعى إلى هدايتهم وإصلاح شؤونهم في الدنيا والآخرة بأيسر الطرق وأحكمها، مما يجعله منهجًا إلهيًا خالدًا يحتاج إليه الدعاة والمصلحون والمجتهدون لقيادة عملية الإصلاح والنهضة في العصر الحاضر.

أبرز التوصيات

انبثاقًا من النتائج التي توصلت إليها الدراسة، تقدم الباحثة بالتوصيات التالية:

أولاً: توصيات على مستوى البحث العلمي والأكاديمي:

١. دعوة كليات الشريعة وأصول الدين إلى إدراج مادة مستقلة أو مقرر دراسي عن "سنة التدرج في التشريع الإسلامي" ضمن مناهجها، لتعميق فهم هذه السنة لدى طلاب العلم.

٢. تشجيع الباحثين والأكاديميين على إجراء المزيد من الدراسات التطبيقية المعمقة حول استثمار سنة التدرج في معالجة القضايا المعاصرة الملحة، مثل: قضايا البيئة، والذكاء الاصطناعي، والتحولات الاجتماعية السريعة.

٣. عقد مؤتمرات وندوات علمية متخصصة تجمع بين الفقهاء والمفكرين والمتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية، لبحث آليات تفعيل منهج التدرج في برامج الإصلاح الشامل.

ثانيًا: توصيات على مستوى الدعوة والإصلاح:

٤. ضرورة تبني المؤسسات الدعوية والإصلاحية لمنهج التدرج كاستراتيجية أساسية في خططها وبرامجها، مع إعداد أدلة عملية ترشد الدعاة والعاملين إلى كيفية تطبيقه في الميدان.

٥. تدريب الدعاة والقادة المجتمعيين على مهارات تطبيق التدرج، مثل: تشخيص الواقع، وتحديد الأولويات، ومراعاة أحوال الناس، وإدارة عملية التغيير التدريجي.

٦. إنتاج مواد دعوية وإعلامية بلغة عصرية مبسطة، تشرح للأفراد والمجتمعات حكمة التدرج في التشريع، وترد على الشبهات المثارة حول تطور بعض الأحكام، مستعينة بالأمثلة القرآنية والنبوية الواضحة.

ثالثًا: توصيات على مستوى الاجتهاد الفقهي والفتوى:

٧. دعوة المجامع الفقهية وهيئات كبار العلماء إلى اعتماد "منهج التدرج" كأحد الضوابط المنهجية الأساسية في بحث القضايا المستجدة وإصدار الفتاوى الجماعية، لضمان التأني ومراعاة الآثار.

٨. تأصيل "فقه الأولويات" وربطه الوثيق بسنة التدرج، بحيث يكون الإفتاء في النوازل متدرجًا، فيقدم الحلول للمشكلات الأكثر إلحاحًا والأعظم أثرًا، مع بيان مراحل العلاج الكامل.

٩. تشجيع الاجتهاد الجماعي المؤسسي الذي يجمع بين الفقهاء والمتخصصين في مختلف المجالات، لضمان النظر الشامل للقضية وتقدير آثار الفتوى قبل إصدارها.

رابعًا: توصيات على مستوى السياسات التشريعية والاجتماعية:

١٠. دعوة واضعي السياسات والتشريعات في البلدان الإسلامية إلى الاسترشاد بمنهج التدرج عند سن القوانين أو تعديلها، خاصة تلك المتعلقة بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الكبرى، لضمان استقرار المجتمع وقبول الناس للتغيير.

١١. تبني برامج توعوية حكومية تهدف إلى إعداد المجتمع نفسيًا وثقافيًا لقبول بعض الإصلاحات التدريجية، على أن تكون مبنية على الشراكة والشفافية.

خامسًا: توصيات على مستوى التربية والتعليم:

١٢. تضمين مناهج التربية الإسلامية في مراحل التعليم المختلفة – بما يتناسب مع عمر المتعلم – دروسًا عملية عن حكمة التدرج في العبادات والأخلاق، لتعويد النشء على منهجية التغيير الذاتي التدريجي.

١٣. تفعيل دور الأسرة والمدرسة في تطبيق التدرج التربوي مع الأبناء والطلاب، فيتعلمون تحمل المسؤولية والالتزام بالأحكام بشكل متزن بعيد عن الإرهاق أو التساهل.

سادسًا: التوصية الختامية:

١٤. الدعوة إلى إطلاق مبادرة علمية عملية تحت عنوان "مشروع استعادة الحكمة: تفعيل سنة التدرج في الفكر والواقع الإسلامي المعاصر"، تتبناها مؤسسة رائدة، تجمع تحت مظلتها جهود الباحثين والمفكرين والممارسين، لتكون بمثابة خارطة طريق عملية لاستئناف دور الأمة الحضاري من خلال استعادة أحد أهم مناهج قرآنها في التغيير والإصلاح.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ) [مريم: ٦٤-٦٥]

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ، الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فها هو هذا الجهد المتواضع "سُنّة التدرّج في التشريع القرآني: دراسة تأصيلية تحليلية في ضوء مقاصد الشريعة" يبلغ ختامه، بعد رحلة فكرية حاولت فيها تتبع ملامح هذه السنة الجليلة في كتاب الله تعالى، واستكناه حكمتها، واستنباط دلالاتها.

لقد حاولت – جاهدًا – أن أقف على الأسرار التشريعية والعقدية والتربوية التي انطوت عليها هذه السنة، مستعينًا بالله تعالى، ثم بتراث علمائنا الأجلاء، سائلًا المولى عز وجل أن أكون قد وفقت في:

- الكشف عن جانب من جوانب الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم.
- ربط النظرية بالتطبيق، والأصل بالفرع، والنص بالواقع.
- تقديم رؤية منهجية متكاملة تستلهم الماضي لتعيش الحاضر وتستشرف المستقبل.

وأبرز ما خلصت إليه:

أن سنة التدرج ليست مجرد أسلوب تاريخي، بل هي منهج رباني خالد، تجلى في تشريع الأحكام، وبناء الشخصية، وإقامة المجتمع، وتحقيق المقاصد. وهي

تجسيد عملي لرحمة الإسلام ووسطيته، وسمة أساسية من سمات صلاحيته لكل زمان ومكان.

البراءة من النقص والخلل:

أما بعد، فإنني أبرأ إلى الله تعالى من كل عيب أو خلل أو نقص قد يشوب هذا العمل، فالكمال لله وحده، والنقص من طبائع البشر وقصورهم.

- أبرأ إلى الله من أي زلل في الاستدلال، أو قصور في الفهم، أو خطأ في النقل.
- أبرأ إلى الله إن كنت قد قصرت في حق آية من كتابه، أو سنة من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، أو إمام من أئمة الهدى.
- أبرأ إلى الله من أي حكم اجتهدت فيه فكانت النتيجة غير المصابة، فكل يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم.

وما كان في هذا العمل من صواب، فهو من توفيق الله وفضله وحده، يهدي به من يشاء من عباده. وما كان فيه من خطأ أو نسيان، فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، ونافعًا لعباده، ولَبِنَةً في بناء الوعي المنهجي الرصين. وأن يغفر لي تقصيري، ويتجاوز عن زللي، ويقبل عملي بقبول حسن.

وهذا جهد المقل، لا يدعي الكمال، ولا يزعم الإحاطة، ولكنه بذل وسع، وحرقة قلب، وغصة محب يرى الأمة وهي تمتلك من كنوز قرآنها ما يؤهلها لقيادة العالم، إن هي فهمته حق الفهم، وعملت به حق العمل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه

فضيلة الشيخ : حذيفة بن حسين القحطاني

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين